

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـــّــة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: الواحد والسبعون

السنة: السابعة والأَربعون

الموصـــــــــل

١٤٣٩هـــ / ٢٠١٧م

الأفكـــار الواردة في المجلـــة جميـــعاً تعبر عــــن آراء كاتبيهـــا، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظـــر المجلـــة

توجـــه المراســـلات باســـم رئيـــس هيئـــة التحـــرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية

باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: الواحد والسبعون	السنة: السابعة والأربعون

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار.
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول.
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

فكرة المهدوية وتوظيفاتها السياسية عند ابن تومرت

أ.م.د. عائدة محمد عبيد *

تأريخ التقديم: ٢٠١٣/٥/٢ تأريخ القبول: ٢٠١٣/٦/٥

ابن تومرت النسب والنشأة

تباينت آراء المؤرخين حول نسب ابن تومرت مقدمين ومؤخرين ومسقطين ومضيفين بعض الاسماء فمنهم من ذكر بأنه محمد بن عبدالله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبدالله بن ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة (رضي الله عنها) بنت رسول الله (ﷺ)(١).

وورد عند آخرون بأنه محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)(٢).

* قسم التاريخ/كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(١) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيذق، أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين، تحقيق: ليفي بروفنسال، (باريس: ١٩٢٨)، ٢١، إذ يؤكد بان هذا هو نسبه الصحيح.

(٢) كما ورد بصيغ أخرى للمقارنة، ينظر: أبو الحسن علي بن عبدالله ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط: ١٩٧٢)، ١٧٢؛ أبو الحسن علي بن محمد الفاسي ابن القطان، نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم، جامعة محمد الخامس (الرباط: د.ت)، ٣٤–٣٥؛ مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، ط١، مطبعة التقدم الإسلامية (تونس: ١٩٣٩)، ٧٥؛ عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر (بيروت: ١٩٥٨)، ٤٦٥/٦؛ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، ط٣، (تونس: ١٩٦٦)، ٣–٤؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف الاتابكي ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، (مصر: د.ت)، ٢٥٤/٥.

ان نسبه إلى آل البيت يمثل الكثير بالنسبة لرجل يدعي انه المهدي المنتظر في قوم من البربر البسطاء، فهو الطريق الشرعي السليم الذي يضمن له الوصول إلى أهدافه السياسية التي كان يطمح إليها وأراد استقطاب الرأي العام لدعوته وتوجهاته، ولسنا هنا بصدد مناقشة صحة هذا النسب أو عدمه، وان ما يهمنا هو الدلالة التاريخية والسياسية لمضمون فكرة المهدوية التي ادعاها كونها مرتبطة بهذا النسب الذي ادعاه، وسنرى ان هذا الاسم جاء مطابقا مع اسم المهدي المنتظر، وهذا التطابق في اسمه واسم ابيه عبدالله العائد إلى السيدة فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) يعد حبكاً في منتهى الدقة والتكتيك السياسي وهذا ما سنراه لاحقا عند الحديث عن ادعائه المهدوية، فان امرأ بتلك المواصفات سوف لن يجد إلا الاستحسان والقبول ومن ثم التأييد والدعم.

وهناك من المؤرخين من يشكك بنسبه لآل البيت على الرغم من ذكرهم نسبه المتصل بهم، وهذا ما ورد لدى ابن خلدون بقوله "زعم كثير من المؤرخين ان نسبه في أهل البيت"[(١)]، كذلك ابن خلكان الذي يذكر بأنه اصطنع لنفسه نسبا ينتمي إلى علي بن أبي طالب (ﷺ)[(٢)]. ثم عاد المؤرخون ونسبوه إلى قبيلة هرغة احد بطون قبيلة المصامدة[(٣)]، أما مولده، فقد أشار المؤرخون انه ولد سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[(٤)]. وفي رواية اخرى انه ولد سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) [(٥)].

---

(١) ابن خلدون، العبر، ٢٢٦/٦.

(٢) أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبو بكر ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء الزمان، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٤٨م)، ٤٥/٥-٥٥.

(٣) ينظر: ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٧٢؛ محيي الدين عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: حسين مؤنس، ط١، (بورسعيد: ١٩٩٧)، ٦٩؛

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٤١/٤؛ صلاح الدين بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت، تير، دار فرنزشتايز، (فيسباوان: ١٩٦١م)، ٣٢٧/٣؛ ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٧٢؛ ابن القطان، نظم الجمان، ٣٤-٣٥؛ مجهول، الحلل الموشية، ٧٥.

(٥) ابو العباس احمد بن حسن بن علي بن الخطيب ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٧١)، ٩٩.

وقد لقب ابن تومرت بعدة ألقاب منها أمغاز [١] وأسافو ومعناه بالبربري السراج أي الضياء، وذلك لكثرة ايقاده القناديل في المساجد[٢]، يتضح من خلال هذا اللقب انه كان ملازماً للمساجد، ولم تذكر المصادر المغربية طبيعة نشأته التي من خلالها يمكن تحديد ثقافته الأولى، فالمعلومات مقتضبة، وعليه فقد جهل المؤرخون الكثير من المعلومات المطلوبة لتوضيح المراحل الأولى من حياته وتعليمه.

---

(١) ابن خلدون، العبر، ٢٥٥/٦.

(٢) محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: حسين مؤنس، مطبعة الثقافة الدينية، ط١، (بور سعيد: ١٩٩٧)، ٦٩؛ شارل اندريه جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمد مزالي والبشير بن سلام، الدار التونسية، (تونس: ١٩٨٣م)، ١٢٣/٢، ويذكر ابن خلدون بأن أسافو يعني الشيخ، والضياء، ينظر: العبر، ٢٢٦/٦.

رحلته في طلب العلم:

قبل رحلته إلى المشرق لطلب العلم، توجه إلى قرطبة(*)(١)، ودرس على يد القاضي عياض(*)(٢)، ثم عاد نحو المغرب ودخل مدينة المهدية(*) والتقى بالامام المازري(*)، وأخذ عنه الحديث(٣) ودرس في مراكش(*) وفاس(*)(٤). ثم رحل إلى المشرق لتلقي العلوم على يد العلماء والشيوخ، وهناك مسألة أثيرت خلال رحلته إلى المشرق وهي

(*) قرطبة: قاعدة الاندلس ودار الخلافة وهي على خمسة مدن، يفصل بين الواحدة والأخرى حاجز، وتحوي كل مدينة على أسواق تكفيها. ينظر: محمد بن ايوب ابن غالب، فرحة الانفس في تاريخ الاندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، (مصر: ١٩٥٦)، ٢٦.

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ٤/٦.

(*) عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض السبتي، اشتهر بالحديث والأدب، تولى القضاء في مدينة سبته ثم غرناطة، من أهم مؤلفاته كتاب الاكمال في شرح كتاب مسلم وكتاب مشارق الانوار، وكتاب التنبيهات (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) في مراكش ابو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال، الصلة، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، (بيروت: ١٩٨٨)، ٦٦٠/٢-٦٦١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٥٢/٣.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ٤/٦.

(*) المهدية: من المدن الكبيرة في تونس...، محاطة بالبحر من جميع جهاتها، بناها عبيد الله المهدي اول خلفاء العبيديين سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م. ينظر: التجاني، رحلة التجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، ٢٣٤؛ محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، ، تحقيق: احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، (بيروت: ١٩٨٠)، ٥٦١.

(*) محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري المالكي المكنى عبدالله والمعروف بالامام المازري، برز في عدة علوم كالحديث والفقه والاصول والأدب والطب والحساب وغيرها، وكان أمام اهل افريقية وما وراءها من المغرب، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٨٥/٤؛ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، سير =أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٨٤)، ١٠٤/٢٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٥١/٤؛ برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد العميري المدني ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق: محمد الأحمدي ابو النور، دار التراث للطبع والنشر، (القاهرة: ١٩٧٢)، ٢٥٠/٢-٢٥١؛ احمد بن محمد التلمساني المقري، ازهار الرياض، ١٦٥/٣.

(٣) الزركشي، تاريخ الدولتين، ٣-٤.

(*) مراكش: اعظم مدينة بالمغرب وأجلها، تقع شمال اغمات وهي على عشرة أميال منها داخل المغرب، بناها يوسف بن تاشفين أمير المؤمنين سنة ٤٧٠هـ وقيل سنة ٤٥٩هـ، وعظمت مراكش حتى اصبحت من أكبر مدن المغرب الأقصى، وهي أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين، وقصدها التجار من كل جهة وصارت حاضرة المغرب وقاعدتها. ينظر: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٥٥)، ٢٥١/٣؛ محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، (بيروت: ١٩٨٠)، ٥٤٠.

(*) فاس: احدى مدن المغرب العربي، وهي عبارة عن مدينتين منفصلتين يفصل بينهما نهر، ويذكر ان سبب تسميتها بفاس انه وجد فاس أثناء عملية حفر المدينة، أسسها ادريس الثاني سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م. ينظر: شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٧)، ٢٣٠/٤؛ عماد الدين اسماعيل بن نور الدين أبو الفدا، تقويم البلدان، اعتناء وتصحيح: رينود البارون، (باريس: ١١٨٤م)، ١٣٣؛ مجهول، الاستبصار، ١٨٠.

(٤) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، (القاهرة: ١٩٤٩)، ١٧٣.

مسألة لقائه بالامام الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)[*]. فللمؤرخين اختلاف في قصة لقائه هذه، فمنهم من أيدها[١]، ومنهم من شكك فيها ونفاها[٢].

ونقل لنا قصة هذا اللقاء صاحب الحلل الموشية نقلاً عن عبد الملك بن صاحب الصلاة عن عبداالله بن عبد الرحمن العراقي بقوله "... كنت ببغداد بمدرسة الشيخ أبي حامد الغزالي، فجاءه رجل كث اللحية ...، فدخل المدرسة، واقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه، فقال، ممن الرجل، فقال من المغرب الاقصى، قال: أدخلت قرطبة؟ قال نعم، قال: كيف فقهاؤها؟ قال بخير، قال هل بلغكم كتاب الإحياء؟ قال نعم، قال: فماذا قالوا عنه، فصمت الرجل حياءً، فعزم عليه ليقولن؟ فاطرق رأسه، واخبره باحراقه وبالقصة كما جرت، قال: فتغير وجهه ومد يده للدعاء والطلبة يؤمنون عليه، فقال: اللهم مزق ملكهم كما مزقوه وأذهب دولتهم كما أحرقوه، فقال له ابن تومرت: أيها الامام ادع الله ان يجعل ذلك على يدي، فتغافل عنه، فلما كان بعد أيام أتى الحلقة شيخ آخر على شكل الأول، فسأله الشيخ الغزالي، فاخبر بصحة الخبر المتقدم، فدعا بمثل دعائه الأول، فقال

(*) أبو حامد بن محمد الطوسي الملقب بحجة الاسلام، احد أئمة المذهب الشافعي ولد في مدينة طوس احدى مدن خراسان، ونشأ نشأة دينية صوفية وفقهية، درس العلوم والمعارف، ثم سافر إلى جرجان ليطلب العلم ويأخذه عن الامام ابي نصر الاسماعيلي، ثم عاد إلى طرطوس وبعدها سافر إلى نيسابور ولازم فيها الامام الجويني الملقب بامام الحرمين، فدرس الغزالي عنده المنطق والجدل والفلسفة وغيرها من العلوم، ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٦٣/١؛ وكان بارعا في الفقه والكلام والجدل، له مؤلفات كثيرة منها، احياء علوم الدين والأربعين والقطاس، والاسماء الحسنى وغيرها، (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، ينظر: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الدار الوطنية، (بغداد: ١٩٩٠)، ١٦٨/٩؛ ابن خلكان، وفيات، ٢١٦/٤؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، ٣٢٢/١٩؛ تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، (بيروت: د.ت)، ١٠١/٤.

(١) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١١٨؛ ابو العباس احمد بن علي القلقشندي، مآثر الاناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد، وزارة الارشاد والبناء، (الكويت: ١٩٦٤)، ٢٥١/٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ٤.

(٢) عزالدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٦٦)، ٥٦٩/٨؛ أبي عبداالله محمد بن خليل ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب، نشر وتصحيح: الطاهر احمد الزاوي، المطبعة السلفية، (القاهرة: ١٣٤٩م)، ٧٧؛ ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦.

له المهدي: على يدي ان شاء الله، فقال: اللهم اجعله على يديه، فتقبل الله دعاءه"[١]. ولا يمكن الجزم بصحة هذه الرواية كون الامام الغزالي كان معروفا آنذاك بعلمه ورجاحة عقله، فهل يعقل ان يأخذ بكلام المهدي في مسألة الدعاء؟

وهناك رواية أخرى تشير بان الشيخ الغزالي كثيراً ما كان يشير إلى المهدي ويقول لابد انه يكون له شأن، ووصل الخبر إلى المهدي فلم يزل يتقرب منه بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما لديه من العلم في ذلك[٢].

ويشير ابن خلدون إلى ابن تومرت عند عودته من المشرق بانه عاد "بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً وارياً من الدين"[٣] أي بمعنى انه جمع علوماً وأفكاراً جمّة من عدة فقهاء وعلماء، الا ان مسألة (شهاباً وارياً) من الدين، لم تتبين هذه المسألة على الرغم من انه كان يتظاهر بها، ولكن الشيء الذي كان واضحاً انه كان يتفوق على مناظريه وهذا ما سنلاحظه لاحقاً.

ويذكر ابن ابي زرع ان من العلماء الذين أخذ منهم العلم الشيخ الاوحد أبو حامد الغزالي، لازمه لاقتباس العلم ثلاث سنين[٤].

---

(١) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء: ١٩٧٩)، ١٠٥، ينظر: ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالامامه على المستضعفين بان جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط١، (بيروت: ١٩٦٤م)، ٨٥. وورد في رواية أخرى أن الغزالي قال: "ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما احسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا، المراكشي، المعجب، ١٧٩.

(٢) مجهول، الحلل الموشية، ٨٥-٨٦؛ احمد بن خالد الناصري، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، (الدار البيضاء: ١٩٥٤م)، ٧٢/٢.

(٣) ابن خلدون، العبر، ٢٢٦/٦؛ ينظر: عبدالله عنان، دولة الإسلام في الاندلس، ١٦١/٤-١٦٣، وهنا تثار مسألة مهمة متعلقة بمدى صحة لقائه بالغزالي، ربما هي قصة لدعم موقفه السياسي كونها قصة تحمل بين احداثها ما يشبه الفتوى الشرعية ضد المرابطين، ولكن هذه القصة لا يمكن الجزم بلقائه من عدمه، كون ابن تومرت عاد إلى المغرب وهو يحمل علماً ومقدرة على اجراء المناظرات، وكان يتوفق في أغلبها، وهذا ما يعطي افتراض صحة الروايات القائلة بحصول اللقاء بينه وبين الغزالي.

(٤) الانيس المطرب، ٢٢٧.

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوظيفاته السياسية:

حينما ذهب ابن تومرت إلى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج، بدأت أفكاره بالظهور ومنها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ أخذ يروجها في مكة المكرمة[١].

ولو عدنا إلى آراء الغزالي في هذا المجال (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) نجد ان الغزالي يذكر "ان يعلم انه يصاب بمكروه، ولكنه يبطل المنكر بفعله كما يقدر ان يرمي زجاجة الخمر فيكسرها ويريق الخمر أو يضرب العدو الذي في يده ضربة مختلطة فيكسره في الحال ويتعطل عليه هذا المنكر، ولكن يعلم انه يرجع إليه فيضرب رأسه فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب"[٢]، وقوله "ان يعلم انه لا يفيد انكاره، ولكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن يستحب لاظهار شعائر الإسلام ويذكر الناس بامر الدين"[٣]، ويشير أيضا بأنه على الامر بالمعروف والناهي عن المنكر.. الوعظ والنصح والارشاد، والتخويف من عذاب الله تعالى وعقابه[٤].

ان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خطان متكاملان لا يتعارضان. ويعد النهي عن المنكر من الواجبات الشرعية في حياة الافراد الواجب تطبيقها كما جاء في قوله تعالى **((وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ))**[٥] وقوله تعالى **((كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ))**[٦].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٣٧/٤؛ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، (بيروت: د.ت)، ٧٠/٤؛ خير الدين الزركلي، الاعلام، دار العلم للملايين، (بيروت: ١٩٧٩)، ٢٢٩/٦.

(٢) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين، مؤسسة المختار، ٢٠٠٤م، ٤٥٨/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٤٤٦/٢.

(٤) المصدر نفسه، ٤١٠/٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

وجاء في الحديث النبوي الشريف "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[١].

ويشير المقدسي إلى ذلك بقوله "اعلم ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو القطب الأعظم في الدين وهو الملهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه لاضمحلت الديانة وظهر الفساد، وخربت البلاد"[٢].

ويصف الشوكاني ذلك المبدأ والقائمين بتنفيذه "انهم يأمرون بما هو معروف وينهون عما هو منكر، فالدليل على كون ذلك الشيء معروفا أو منكرا هو الكتاب والسنة"[٣]. والمعروف لغة ضد المنكر.. وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه[٤]. أما المنكر، فهو ضد المعروف وهو ما عرف قبحه نقلا وعقلا[٥] وهو النهي عن المحرمات[٦].

والمعروف ان جميع المسلمين اتفقوا على تحقيق هذا الأمر الالهي، ولكن تصورهم كان مختلفا بعض الشيء عن كيفية تحقيقه وانفاذه وحدوده[٧]. وقد وظف ابن تومرت كل هذا توظيفا سياسيا لانجاح دعوته المهدوية.

(١) مسلم بن الحجاج ابو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي (بيروت: د.ت)، باب النهي عن المنكر، رقم الحديث (٧).

(٢) أحمد بن قدامة، مختصر منهاج القاصرين، دار البيان (دمشق: ١٩٧٨)، ١٣٢.

(٣) محمد بن علي، ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الاصول (مصر: ١٩٣٧)، ٧٧.

(٤) محمد بن مكرم الافريقي ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط١، (بيروت: د.ت)، ٢٤٠/٩؛ أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الاثر، تحقيق: احمد الزاوي ومحمود محمد، ط١، المكتبة العلمية (بيروت: ١٩٧٩)، ٢١٦/٣.

(٥) محمد بن محمد القرشي ابن الاخوة، معالم القربة في احكام الحسبة (القاهرة: د.ت)، ٢٢.

(٦) ابن حجر الهيثمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، دار الكتب العربية (القاهرة: د.ت)، ١٤٦/٢.

(٧) ينظر: القاضي المعتزلي، طبقات المعتزلة، تحقيق: علي سامي النشار وعصام الدين محمد، ط١ (مصر: ١٩٧٢)، ٤٧؛ ابو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، (مصر: ١٩٥٠)، ٣/١؛ ابو الحسين علي بن الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: عفيف نايف حاطوم، ط١، دار صادر (بيروت: ٢٠٠٥)، ٢٢٣/٣.

فلا بد ان هذه الأمور قد أثرت كثيرا لدى ابن تومرت مما اتخذ منهج الامر بالمعروف والنهي عن المنكر صلب دعوته، وأصبح ذلك سيرة يومية في حياته وهو ما درج عليه في التوظيف السياسي حتى وفاته. كذلك يدل هذا على احتمال لقائه بالغزالي مما جعله متأثرا بآرائه حول هذا المبدأ، والعمل على تطبيقه بشتى الوسائل لتحقيق مآربه السياسية.

وتوجه ابن تومرت إلى مصر سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م)[١]، وسار على نهج الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أدى إلى سخط السلطة عليه، فأمرت باخراجه منها[٢] فتوجه نحو الاسكندرية مرتادا مجلس الفقيه الشيخ أبي بكر الطرطوشي[*] لأخذ الدروس على يديه[٣] آخذاً بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما أدى إلى قطع صلته بمجلس الطرطوشي، ... فتعرض على أثر ذلك إلى سخط العامة والسلطة الحاكمة[٤]

---

(١) الحنبلي، شذرات الذهب، ٧١/٤.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٤٢١/٢؛ تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت: د.ت)، ٧١/٤؛ الزركلي، الاعلام، ٢٢٩/٦.

(*) أبو بكر الطرطوشي: محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن ايوب الفهري الطرطوشي يكنى ابا بكر ويعرف بابن رندقة، وسمي بالطرطوشي نسبة إلى مدينة طرطوشة الاندلسية التي ولد فيها، وكان عالما زاهدا متورعا، عالم في الفقه والحديث، له عدة كتب منها سراج الملوك ومختصر تفسير الثعالبي وبر الوالدين، (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) في الاسكندرية، ينظر: ابو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى ابن بشكوال، الصلة، دار الكتاب المصري، (القاهرة: ١٩٨٨)، ٨٣٨/٣؛ احمد بن محمد التلمساني ابن المقري، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، (مصر: ١٩٤٩)، ٢٩٢/٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٥٦٩/١٠؛ زين الدين عمر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (النجف: ١٩٦٩م)، ٣٧/٢؛ الزركلي، تاريخ الدولتين، ٤.

(٣) المراكشي، المعجب، ١٧٩؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٥٦٩/١٠؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٧/٢.

(٤) ابن القطان، نظم الجمان، ٣٩/٦.

وبعد ذلك قرر حاكم المدينة نفيه إلى بلاده[١]. توجه ابن تومرت إلى المغرب بواسطة السفينة، وكعادته أخذ يعظ ركابها ويأمرهم بالصلاة وتلاوة القرآن[٢].

وأثناء توجهه إلى المغرب نزل مدينة طرابلس[*]، وأخذ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر[٣]، متخذا احد مساجد طرابلس مقرا له[٤]، ثم ذهب إلى مدينة المهدية في تونس ونزل في احد مساجدها، وكان كلما رأى منكرا أصر على تغييره، فكسر أواني الخمر وآلات الملاهي والطرب[٥]، وسمع به والي المدينة الصنهاجي (علي بن يحيى بن تميم ٥٠٩-٥١٥هـ/ ١١١٥-١١٢١م)، فاستدعاه مع مجموعة من الشيوخ والفقهاء، لمعرفة أمره، فلما رأوه وسمعوا حديثه، أكرمه الأمير وأجله وسأله الدعاء فقال "أصلحك الله لرعيتك"[٦].

وهكذا نرى ابن تومرت قد شرع منذ عودته من رحلته المشرقية في بث أفكاره الدينية لأغراض سياسية، وسنرى ان هذه الدعوة الدينية ستتحول فيما بعد إلى دعاية سياسية مناهضة لحكم المرابطين في المناطق التي كان يمر بها تمهيدا للدخول في مواجهة حاسمة ضدهم، وكان قوام هذه الدعاية السياسية، توظيف النصوص الدينية، قصد تجريد السلطة القائمة من مشروعيتها وإيجاد المبررات الشرعية للقيام بها.

---

(١) المراكشي، المعجب، ١٧٩.

(٢) المراكشي، المعجب، ١٧٩؛ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: حسين نصار، مراجعة: عبد العزيز الاهواني، الهيئة المصرية العامة للكتب، (القاهرة: ١٩٨٣)، ٢٤/٢٧٧-٢٧٨؛ السبكي، طبقات الشافعية، ٧١/٤؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ٧١/٤.

(*) طرابلس: مدينة في المغرب العربي كانت تسمى بالمدينة البيضاء، تقع على شاطئ البحر المتوسط، كثيرة الخيرات والبساتين، يحيط بها سور عظيم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٥/٤.

(٣) ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦.

(٤) أبو محمد عبدالله بن محمد بن احمد التجاني، رحلة التجاني، تقديم: حسن حسين عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، (تونس: ١٩٥٨م)، ٢٤٥.

(٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٣٨/٤؛ أبو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط٢، (القاهرة: ١٩٩٣)، ٢٣٤/٣.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٤٢/١٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٢٣٤/٣.

ثم رحل ابن تومرت إلى تونس واستمر على نفس النهج، بإلقاء الدروس على طلبة المدينة الذين توافدوا عليه لدى سماعهم بوصوله[١]، ثم توجه باتجاه القسطنطينة[*]، وأثناء تواجده فيها، أقبلت جموع من الطلبة ليأخذوا عنه أصول الدين[٢]، وهكذا نراه يتنقل من مدينة إلى أخرى للترويج لافكاره.

ودخل مدينة بجاية[*] عام (٥١١هـ/ ١١١٧م)[٣]، وكان واليها العزيز بالله بن منصور ابن الناصر بن علناس الحمادي (٤٨٩-٥١٥هـ/ ١١٠٤-١١٢١م)[٤]، وكان ابن تومرت قد اتخذ من مسجد الريحانة مقرا له لإلقاء دروسه[٥] وأخذ الطلبة بالتوافد إليه ليأخذوا عنه علوم الدين والشريعة وأصول التأويل[٦].

ثم أخذ بتغيير المنكرات التي كان يراها في المدينة منها تفريق الرجال عن النساء في صلاة عيد الفطر[٧] وتكسير أواني الخمر واللهو[٨]، مما نتج عن تذمر أهل المدينة منه فحرضوا الحاكم عليه، مما جعل الحاكم يقوم باجراء مناظرة بين ابن تومرت وفقهاء المدينة... وانتهت المناظرة لصالح ابن تومرت[٩] مما جعل الناس تميل اليه[١٠].

---

(١) البيذق، أخبار المهدي، ٥٠-٥١؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ٤.

(*) قسطنطينة: مدينة كبيرة من مدن المغرب العربي، أسسها الفينيقيون وأطلقوا عليها أسم سيرنا، وأصبحت عاصمة نوميديا الشرقية، وخربت بعد جلاء الرومان عنها فأعاد بنائها قسطنطين وسميت منذ ذلك الوقت بقسطنطينة، محاطة بوادي من جميع جهاتها، وتعد من المدن الحصينة لما تحويه من حصون في غاية المنعة والحصانة، لا يضاهيها في ذلك سوى مدينة رندة بالاندلس. ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ٦٧-٦٨؛ مجهول، الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، (الاسكندرية: ١٩٥٨)، ١٦٥.

(٢) البيذق، أخبار المهدي، ٥٠-٥١.

(*) بجاية: مدينة كبيرة شامخة تقع على البحر بين جبال شامخة أحاطت بها، كثيرة الخيرات، ولها سور عظيم يضرب فيه ماء البحر، فيها قلعة بناها حماد بن بلقتين. ينظر: محمد بن عبد العزيز الشريف الادريسي، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق، اعتناء وتصحيح ونشر: هنري بيريس، (الجزائر: ١٩٥٧)، ٦٣-٦٤.

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ٢١/٦.

(٤) ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦.

(٥) البيذق، اخبار المهدي، ٥٢.

(٦) المراكشي، المعجب، ١٧٩-١٨٠؛ ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٧٣.

(٧) البيذق، اخبار المهدي، ٥٢؛ ابن القطان، نظم الجمان، ٤١/٦.

(٨) البيذق، اخبار المهدي، ٥٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥٤/٥.

(٩) ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ٤١/٦.

(١٠) المراكشي، المعجب، ١٧٩-١٨٠.

ثم رحل ابن تومرت من بجاية إلى رباط ملالة[*]، فأقبل الطلبة اليه من كل مكان،.. وقام باهراق الخمر... فسألوه الناس من أمرك بالحسبة؟ أجاب: الله ورسوله[١].

ومن هنا تبدأ مرحلة أخرى كان لها دورها في الأحداث السياسية اللاحقة وهي التقاؤه بعبد المؤمن بن علي[*] في رباط ملالة[٢]، إذ كان عبد المؤمن ينوي الذهاب إلى المشرق لطلب العلم، وشاءت الظروف ان يلتقي بالمهدي قبل سفره إلى المشرق[٣]. وكان لهذا اللقاء أثره الفعال إذ انظم إلى دعوته وأصبح من اقرب المقربين لأبن تومرت وخرجا سوية من الرباط بعد ان بايع عبد المؤمن بن علي ابن تومرت على مؤازرته في كل الأمور والظروف[٤]، ومرا بالعديد من المدن[٥]، ودخل مدينة تلمسان في المغرب آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر[٦]، متخذا احد المساجد لإلقاء المواعظ على الطلبة[٧].

ثم ارتحل إلى مدينة فاس وبقي فيها حتى عام (٥١٤هـ/ ١١٢٠م)[٨] وأخذ الطلبة يتسارعون إليه لأخذ العلم منه[٩].

(*) ملالة: هي احدى قرى بجاية تبعد عنها فرسخا، وكانت تسمى (تاملات) يقطنها بنو وريكال من قبائل صنهاجة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١٨٩/٥؛ المراكشي، المعجب، ١٨٠.

(١) ينظر: البيذق، اخبار المهدي، ٥٢-٥٣.

(*) عبد المؤمن بن علي ينتمي إلى قبيلة كومية الواقعة في تلمسان، انظم إلى دعوة ابن تومرت.. تولى الحكم بعد وفاة ابن تومرت بوصية من ابن تومرت، وواصل الحرب حتى اسقط دولة المرابطين.. ووسع الدولة حتى اصبحت في عهده كل افريقية اجزاء كبيرة من الاندلس (ت ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م). ينظر: البيذق، اخبار المهدي، ٢١-٢٣، ٥٥، ٧٣؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ٤٠٢/٢-٤٠٣.

(٢) عماد الدين اسماعيل نور الدين ابو الفدا، المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية، (القاهرة: د.ت)، ٢٣٢/٢؛ أبو محمد عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعدة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الاسلامي، (القاهرة: ١٩٩٣)، ٢٣٤/٢؛ الزركلي، الاعلام، ٢٢٩/٦؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ١٧/٤.

(٣) للتفاصيل، ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٥٣-٥٦ ويقارن مع ابن الأثير، الكامل، ٥٧٠/١٠؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٧٩/٢٤.

(٤) ينظر: ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٣.

(٥) البيذق، أخبار المهدي، ٥٧-٥٩.

(٦) المصدر نفسه، ٦٠.

(٧) المراكشي، المعجب، ١٨٣.

(٨) ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٧٣؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ١١٢.

(٩) البيذق، أخبار المهدي، ٦٤.

وكعادته أيضا أخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأمر أصحابه بالتفرق على الحوانيت وكسر ما فيها من آلات الطرب واللهو بأنواعها، مما ادى إلى تذمر اهل المدينة منه فشكوه إلى قاضيهم ابن معيشة[*]، الا انه لم يستجب لشكواهم وانبهم على ذلك وايد عمل المهدي على انه من السنة[١] وعند وصول خبره إلى والي المدينة، نظم مناظرة لابن تومرت مع فقهائها لمعرفة ما يدور من افكار وعقائد لدى المهدي، وكانت نتيجتها لصالح ابن تومرت[٢].

ان الباحث في علم الكلام الإسلامي يشد انتباهه ملاحظة واضحة تتجلى في استئثار الجانب المشرقي من العالم الإسلامي بالقسط الاوفر منه، وذلك كونه المجال المكاني الأول الذي ظهرت فيه الفرق الإسلامية، أو من حيث أن العلماء والمفكرين ورجالات الكلام والفلاسفة برزوا من بين رجالاته وعلى ارضه خصوصا، فانعكس ذلك على الحياة الفكرية والدينية بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى فاثمر علوما جديدة وفلسفات متنوعة وطور لنا ما يعرف بعلم الكلام أو الفلسفة الاسلامية، وعند تطرقنا لمسألة رحلة ابن تومرت للمشرق من المؤكد انها الاساس في التأثير في افكاره وسببا في تفوقه في المناظرات التي كانت تنتهي لصالحه لاسيما ان بلاد المغرب في تلك الفترة لم تكن تشهد امتدادا حقيقيا للاتجاهات الكلامية، ولم تعرف أي تنوع أو ابداع في علم العقائد لذلك استغل ابن تومرت هذا الاتجاه للوصول إلى ما يريد.

(*) عبد الحق بن عبدالله بن معيشة الغرناطي، قاضي مدينة فاس. في عهد الأمير علي بن يوسف، ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٦٥.

(١) البيذق، أخبار المهدي، ٦٥.

(٢) المراكشي، المعجب، ١٨٤؛ السبكي، طبقات الشافعية، ٧٣/٤.

ثم دخل مكناسة(*) واخذ طلبة العلم يتوافدون اليه لاخذ العلم منه(١)، ثم غاردها مضطرا بعد الاعتداء عليه بالضرب والاذى(٢)، ثم دخل مدينة سلا(*) آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر(٣)، ثم ارتحل إلى مراكش عام (٥١٤ هـ/١١٢٠م)، ونزل في مسجد صومعة الطوب(٤).

وكان ابن تومرت لا ينتهي من منهجه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لدرجة تدخله في كيفية اسفار النساء عن وجوههن مما أدى إلى تذمر الناس فيه ووصل الخبر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف(*) (٥٠٠-٥٣٥هـ/ ١١٠٦-١١٤٠م) الذي أمر باحضاره إلى مقر الحكم لاجراء مناظرة بينه وبين العلماء للتأكد من صحة ادعائه(٥).

(*) مكناسة: احدى مدن المغرب الأقصى، تقع في جنوب غرب فاس، واسعة وكثيرة والخيرات، اشتهرت بزراعة الزيتون حتى اطلق عليها تسمية مكناسة الزيتون، وهي عبارة عن مدينتين صغيرتين قديمة وحديثة، اختطها يوسف ابن تاشفين، وسميت بمكناسة نسبة الى قبيلة مكناسة البربرية. ينظر: الادريسي، وصف افريقيا الشمالية، ٥٢؛ صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت: ١٩٥٤)، ١٣٠٣/٣.

(١) ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٦٥-٦٦.

(٢) ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ٥.

(*) سلا: من المدن القديمة باقصى المغرب، وهي مدينتان قديمة وحديثة مشهورة بكثرة بساتينها وأسواقها، الحميري، الروض المعطار، ٣١٩؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ٢٣١.

(٣) البيذق، أخبار المهدي، ٦٦.

(٤) ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٦٧؛ ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٤؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ٥.

(*) علي بن يوسف بن تاشفين: ولد في مدينة سبتة ودرس فيها، كان عمره ثلاث وعشرون سنة عندما تولى السلطة بعد وفاة أبيه وذلك سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦م، كان شديد الورع والتقوى، واصل الجهاد في المغرب والاندلس، (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) في مدينة مراكش. ينظر: ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٥٧؛ المقري، نفح الطيب، ١١١/٦؛ ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم الرعيني ابن ابي دينار، المؤنس في أخبار افريقيا وتونس، تحقيق: محمد شمام، المكتبة العتيقة، (تونس: ١٩٦٧)، ١٠٧.

(٥) ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٧١/٨؛ ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦؛ محمد بن محمد الاندلسي الوزير، الحلل السندسية في الأخبار الاندلسية، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، (تونس: ١٩٧١م)، ٩٨٠.

فعندما حضر الفقهاء المناظرة قال لـه الامير علي بن يوسف "انما بعثت لكم لتختبروا أمره، فان كان عالما اتبعناه، وان كان جاهلا ادبناه"[١]، إلا ان ابن تومرت استطاع اقناع الامير بانه لم يأتِ إلاّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوضح للأمير كيف ان الخمر تباع جهارا وتمشي الخنازير بين المسلمين، وان اموال اليتامى تؤكل حتى جعل الامير تذرف عيناه دمعا من كلامه[٢] واجابه شارحا بقوله انما انا رجل فقير طالب الاخرة وليس بطالب دنيا ولا حاجة لي بها غير اني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وانت اولى من يفعل ذلك، فانت المسؤول عنه وقد وجب عليك احياء السنة واماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد امرك الله بتغييرها، واحياء السنة بها، اذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه[٣]. وكثيرا ما اخذ المهدي حكام المرابطين على ما كانوا يمارسونه من طغيان واستبداد، كما كان كثيرا ما يؤاخذهم باتخاذهم فئة معينة من الفقهاء مرجعا وحيدا في التعرف على ما يجري في الواقع الاجتماعي، مما أدى إلى نقل الحقائق مزيفة إلى الأمير حسب رأيه (أي ابن تومرت). وان دل هذا على شيء إنما يدل على دهائه وذكائه لتحقيق ما يصبو إليه من اطماع سياسية.

وبذلك يتضح ان مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر جعله من اهم التوظيفات السياسية والاجتماعية، فقد عبر عنه بالقيام بامر الله وقال فيه "القيام بامر الله واجب، وانه على الفور لا يجوز فيه التأخير"[٤] ورفعه إلى درجة الوجوب الغيبي إذ يقول: "ان الفساد يجب دفعه على الكافة، وان الفساد لا يجوز التمادي على قليله وكثيره"[٥].

---

(١) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٤١/٤؛ محمد بن شاكر الكتبي، التواريخ، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة عبد المنعم، دار الحرية للطباعة والنشر، (بغداد: ١٩٧٧م)، ١١٠/١٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٢٣٦/٣.

(٣) ابن ابي زرع، الانيس المطرب، ١٢؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ١٢١.

(٤) محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن المهدي ابن تومرت، اعز ما يطلب، تقديم تحقيق: عبد الغني ابو العزم، مؤسسة الغني للنشر، دار وليلي للطباعة والنشر، المغرب، (الرباط: د.ت)، ٢٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ١٩٤.

ان المنهج الذي انتهجه لحركته السياسية والاصلاحية في التغيير السياسي كان عاملاً أساساً في مآل هذه الحركة إلى النجاح أو الفشل، وهو لا يقل في ذلك أهمية عن عامل المضمون الذي يبشر بالاصلاح.

وان منهج التوظيف السياسي هو خطة لازالة واقع قديم ووضع واقع جديد مكانه ولذلك نرى ان ابن تومرت يتخذ من الاساليب والطرق ما من شأنه ان يعصم مسيرة حركته من الفشل والانحراف من معالم التغيير السياسي الذي يسعى اليه فكان على استيعاب كامل ليسيطر على النفوس والعقول، ولم يكن توظيفه عشوائيا فوضويا بل رسم منهجا واضح المعالم.

وكان الفقهاء يعلمون بما يبحث عنه ابن تومرت وهو الوصول إلى الحكم ولكنهم لم يتكلموا عن ذلك(١)، إلا ان الفقيه مالك بن وهب(*) حذر الامير علي بن يوسف من نوايا ابن تومرت واقترح عليه زجه في السجن هو وأصحابه(٢).

وكاد الامير يفعل ذلك لولا توسط الوزير نيتان بن عمر(*) الذي نصح الامير بالابتعاد عن هذا الامر خوفا على الامير من كلام العامة(٣)، لذلك اكتفى الامير بنفيه خارج المدينة، مما أدى بابن تومرت للخروج منها(٤).

(١) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٤٢٢/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٨٦/١٢؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ٧١/٤.

(*) أبو عبدالله مالك بن يحيى بن وهب الاشبيلي، فقيها وفيلسوفا، حضر إلى مراكش باستدعاء من الامير علي بن يوسف، من مؤلفاته (قراطة الذهب في ذكر لئام العرب) ت ٢٢٥هـ/ ١١٣٠م بمراكش، ابن بشكوال، الصلة، ٨٩٧/٣؛ أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن الابار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة: ١٩٦٣م)، ٧٦/٢.

(٢) ينظر: السبكي، طبقات الشافعية، ٧٢/٤؛ اليافعي، مرآة الزمان، ٧٢/٣؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ٧١/٤.

(*) أحد القادة المرابطين ضد جيش الموحدين في أولى معارك ابن تومرت، وكان لهذا الوزير مكانة وحضوة لدى الامير علي بن يوسف، البيذق، اخبار المهدي، ٦٨-٦٩.

(٣) ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٤١/٤؛ الكتبي، عيون التواريخ، ١١١/١٢؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٧٣/٣.

(٤) البيذق، أخبار المهدي، ٦٨-٦٩؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١٤٢/٤؛ السبكي، طبقات الشافعية، ٧٢/٤.

والمثير للأمر هنا ان ابن تومرت يذهب للاقامة في احد المقابر من مراكش ومنها اخذ يلقي دروسه ومواعظه على الطلبة الذين بدأوا يتوافدون إليه، وكانت هذه فرصة لا تعوض لابن تومرت للطعن بالمرابطين(١) ومن هنا بدأت بواكير ما كان يسعى لتحقيقه، ومسألة اتخاذه من المقابر مأوى له وذلك ليظهر أمام الناس بمظهر الزهد والتقشف، وبانه لا يريد شيئاً سوى رضا الله وانه لا يطمع بالدنيا، وهذا ما سيجعل الناس أكثر تعاطفا وتأييدا لدعوته.

وبسبب هذا الامر يضطر علي بن يوسف للذهاب إليه بنفسه، طالبا منه الخروج، وكذلك فعل الفقيه نيتان بن عمر، وعلى أثر ذلك خرج ابن تومرت تاركاً المقبرة ومتوجها إلى اغمات(*)(٢).

عند وصول ابن تومرت إلى اغمات نزل في مسجد المدينة لاعطاء الدروس لطلبتها(٣)، وأثناء ذلك ينصحه الفقيه عبد الحق بالرحيل إلى منطقة يقال لها تينملل(*) وذلك ليتناسى ذكره(٤)، ويبدو ان هذه النصيحة جاءت نتيجة لمضايقته للناس بكثرة نصائحه لهم، وكذلك تذمر الأمراء والحكام منه خوفا من تطلعاته السياسية، ولهذا نصحه بالابتعاد قليلاً ريثما يهدأ الناس وتبتعد عنه الانظار.

---

(١) البيذق، أخبار المهدي، ٦٩؛ ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٥.

(*) أغمات: من مدن المغرب العربي، جنوب مدينة مراكش، وهي عبارة عن مدينتان متقابلتان (أغمات وريكه) و(اغمات ايلان)، مشهورة بكثرة خيراتها من الاشجار والثمار. الادريسي، وصف افريقيا الشمالية، ٤٢–٤٥؛ شمس الدين أبي عبيد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (ليزيك: ١٩٢٣)، ٢٣٦.

(٢) للاطلاع والمقارنة بين الروايات على ما جرى من حديث بين ابن تومرت وعلي بن يوسف، ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٦٩؛ ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٦؛ الناصري، الاستقصا، ٨٢/٢؛ المراكشي، المعجب، ٢٣٥؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ١١٢.

(٣) البيذق، أخبار المهدي، ٧٠.

(*) تين مللّ: الميم المفتوحة واللام الاولى مشددة، جبال بالمغرب بها قرى ومزارع بين اولها ومراكش نحو ثلاثة فراسخ. ينظر: البغدادي، مراصد الاطلاع، ٢٨٨/١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٤٢/٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٥٤٤/١٩.

وقام ابن تومرت ببناء المساجد في المناطق التي كان يمر بها، واخذ يوعظ الناس ويدعوهم للانصياع له، وكان يقاتل من تمنع عن ذلك[١]، ومن هنا اخذت توظيفاته السياسية تبدو أكثر وضوحاً.

وحقيقة الأصل كما قررها ابن تومرت هي انه "كل ما ثبت به السمع الذي هو الكتاب والسنة والاجماع بالاصل المقطوع به وهو المتواتر... وهذه الاصول ترجع في مظاهرها الثلاثة إلى اصل واحد تنحصر فيه وهو امر الله ونهيه، وهما في الحقيقة الاصلان اللذان بهما ثبتت الاحكام، وعليهما يترتب التكليف، ... وفيما عدا الامر والنهي الإلهيين الثابتين بالتواتر لا يصلح أي شي لان يكون اصلا للاحكام لا العلم الظني ولا القياس ولا خبر الاحاد[٢].

ولكي يضمن مساندته ونجاح دعوته وتأييدها توجه إلى قبيلة هرغة في جبل ايجليز وذلك عام (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) [٣] وبايعوه على ذلك[٤]، وبهذا يكون قد ابتعد عن مضايقات المرابطين له.

وعند استقراره بين قبيلته أخذ بارسال الدعاة إلى القبائل الأخرى لكسب تأييدها[٥] وسمى أتباعه بالمؤمنين واخذ يحرضهم ويمتدحهم وبأنهم هم من اختارهم الله سبحانه وتعالى[٦].

ان رحلة ابن تومرت إلى كل هذه الاقاليم لم يكن مرورا عابرا تحت ستار العلم والزهد، وانما كان ذا هاجس لتأسيس دولة مترامية الاطراف، كما أكسبته رحلته هذه مفاهيم دينية، فضلا عن معارف سياسية تكونت لديه.

---

(١) البيذق، أخبار المهدي، ٧١-٧٢.

(٢) ينظر: ابن تومرت، أعز ما يطلب، ١٨٠-٢٠.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ١٠٧؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٨٠/٢٤؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٧/٢.

(٤) البيذق، أخبار المهدي، ٧٣.

(٥) مجهول، الحلل الموشية، ١٠٧؛ ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦-٢٢٨.

(٦) المراكشي، المعجب، ١٨٨.

اعلان المهدوية وتوظيفاتها السياسية وأخذ البيعة له:

ان عقيدة انتظار المهدي (عليه السلام) هي موضع اتفاق بين غالبية المذاهب والفرق الإسلامية. وقد وردت أحاديث نبوية شريفة عديدة في شأن المهدي منها، قول الرسول (ﷺ) "لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطيء أسمه اسمي"(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام "لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يأتي". وقوله "ان في أمتي المهدي يخرج ويعيش خمسا أو سبعا أو تسعاً"(٢).

وقوله (ﷺ) "لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا من أهل بيتي، يواطيء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً"(٣). فقد وظف ابن تومرت هذه الاحاديث توظيفا سياسيا وأشار إليها في كتابه اعز ما يطلب(٤).

بعد ان وظف مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتقل إلى الثقة بالامام، فقد عمل على ان يثق به اتباعه الثقة المطلقة والالتفاف حوله، وقد سلك في ذلك مسالك متنوعة، فقد حرص على الاستقامة والتدين والاخلاص والزهد، وهذا ما اكسبه الاحترام وانزله في نفوسهم المقام العظيم. هذه العقيدة هي الايمان بامام منتظر يعود نسبه إلى آل البيت، ويظهر في زمن ما ليخلص الامة من الظلم والطغيان، ويملأ الارض عدلا بعد ما ملئت جورا، ويسمى المهدي، فسلك ابن تومرت مسلكا يؤدي إلى ان يعتقد الناس انه هو المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً.

---

(١) أبو بكر ابن العربي المالكي، صحيح البخاري، مطبعة الصادي (مصر: ١٩٣٤)، ط١، ٧٤/١.

(٢) المصدر نفسه، ٧٤/١-٧٥.

(٣) الامام سليمان بن الاشعث السجستاني ابو داود، السنن، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (بيروت: د.ت)، ١٠٦/٤؛ الامام ابو حاتم محمد التميمي ابن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة، (بيروت: ١٤١٤هـ)، ٢٣٧/١٥؛ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الدمشقي، منهاج السنة النبوية، دار الآثار للنشر والتوزيع (القاهرة: ٢٠٠٢)، ٣١١/٤.

(٤) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٠٥.

وكانت الخطوة الاولى في هذا المسلك ما درج عليه منذ وقتٍ مبكر من ذكر للمهدي المنتظر، وأشار إلى اقتراب ظهوره، ويشوقهم إليه ويجمع الاحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، ويذكر لهم فضيلته ونسبه(١).

ويشير المهدي في كتاب اعز ما يطلب بان المهدي يعرف بستة أشياء الحسب، والنسب، والزمان، والمكان، والقول، والفعل، فأما الحسب، فحسب حزب الموحدين، وأما النسب، فانه من ذرية فاطمة (رضي الله عنها)، وأما الزمان، فيأتي في اخر الزمان، وأما المكان، فالمكان الذي قام منه، واما القول فانه قال انا المهدي (وهو صادق) في قوله، وأما الفعل، فانه يفتح الدنيا شرقها وغربها(٢).

بدأ ابن تومرت بالتهيؤ لاعلان مهدويته وبانه المهدي المنتظر وان لم يصرح بذلك علناً ففي حشد من الناس قام ابن تومرت خطيبا بما يفهم منه نية الاشارة إلى انه هو المهدي المنتظر وذلك بالقاء خطبة بين الناس قال فيها: "الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء لا راد لامره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يبعثه الله إذ افسح الباطل بالحق وأزال الجور بالعدل مكانه المغرب الاقصى وزمنه آخر الزمان، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ونسبه بنسب جور الامراء وامتلأت الارض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل"(٣). فبادر إليه عشر رجال من أتباعه الملازمين له أولهم عبد المؤمن بن علي وقالوا له "يا سيدي هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي"(٤) وذلك سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م فبايعوه على ذلك(٥) ولقب ابن تومرت بالمهدي وكان يلقب قبل ذلك بالإمام(٦) ويطلق عليه البيذق الإمام المعصوم المهدي(٧) ثم

---

(١) ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٠٢؛ المراكشي، المعجب، ٢٥٤.

(٢) ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٤٠٠.

(٣) مجهول، الحلل الموشية، ١٠٧؛ ابن القطان، نظم الجمان، ٧٥/٦.

(٤) ابن القطان، نظم الجمان، ٧٥-٧٦؛ أبو الفدا، المختصر بأخبار البشر، ٢٣٣/٢؛ ابن الخصيب، أعمال الأعلام، ٢٦٩/٣.

(٥) ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ٧٥-٧٦.

(٦) ابن خلدون، العبر، ٢٢٩/٦؛ القلقشندي، صبح الاعشى، ١٩١/٥.

(٧) ينظر: البيذق، الكتاب بأكمله.

بويع البيعة العلنية[١]. وبعد الوثوق من امر المهدوية ادرج ابن تومرت هذه العقيدة في نظرية شاملة في الامامة فاذا الامام هو المهدي المنتظر (العلم به واجب والسمع والطاعة له واجب، واتباعه والاقتداء بافعاله واجب، والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضا بحكمه واجب، والانقياد لكل ما مضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب[٢].

تعاليم وتنظيمات ابن تومرت للموحدين وتوظيفاتها السياسية:

قام ابن تومرت بتنظيم اتباعه بعد ان اخذت دعوته الطابع السياسي الواضح فرتبهم إلى طبقات ومنازل بحسب سبقهم إلى اتباع دعوته وحسب نفوذهم داخل القبائل وذلك لتنظيم امورهم.

وكان ابن تومرت قد بادر بتأليف كتب للمنظمين إلى دعوته واتباعه في التوحيد والعبادة[٣] توخى فيه اسلوبا ميسرا سهل المآخذ، وألف منها نظائر باللسان البربري لمن لا يعرف العربية، قال ابن خلدون: "فنزل على قومه وذلك سنة (٥١٥ هـ/ ١١٢١م) وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت اليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري[٤].

وأخذ اصحابه بتعلم واستيعاب ما في تلك الكتب من حقائق التوحيد واحكام العبادة، مع الالتزام بحفظ اجزاء من القران الكريم والحديث الشريف، وقام على ذلك بنفسه، اذ التزم بتدريس جزء من محتوى تلك الكتب وتحفيظ جزء من القران الكريم والحديث النبوي الشريف اثر صلاة الصبح، ولما تكاثر عدد الاتباع قسمهم مجموعات عشرية، ولكن لكل واحدة منها نقيباً من اصحابه النابهين يقوم على تعليمها[٥] فكان يشدد عليهم

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ٧٦/٦.

(٢) ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٠٣.

(٣) ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٥٧٦/١٠؛ المراكشي، المعجب، ٢٥٥-٢٥٦؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٨٦/٢٤-٢٨٧.

(٤) العبر، ٤٦٩/٦.

(٥) ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ٢٦-٢٧.

في تلك التربية، فاحدث تعازير قد تبلغ إلى حد الضرب بالسياط يعاقب بها من يبدي التهاون في حضور الاوقات المقررة، أو في حفظ ما يتطلب منه حفظه[١].

ألف ابن تومرت عقيدته التوحيدية وقال لهم "من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز امامته ولا تأكل ذبيحته[٢]. وهو عبارة عن سبعة أحزاب على عدد أيام الاسبوع، وأمرهم بقراءة حزب واحد كل يوم بعد صلاتي المغرب والصباح[٣] واشترط ان لا يقدم للامامة والخطابة الاّ من يحفظ التوحيد باللسان البربري[٤] وبدأ يزداد أتباعه وتأثرهم به وطاعتهم له خلال المدة التي قضاها في جبل ايجليز حتى سنة (٥١٨هـ/ ١١٢٤م)[٥].

كانت سياسة ابن تومرت تجاه الخارجين على طاعته انه كان "يعضهم في كل وقت ويذكرهم ومن لم يحضر أُدبَ، فان تمادى قُتل، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط المرة والمرتين فان ظهر منه عناد وترك امتثال الاوامر قتل ومن داهن عن اخيه وأبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل"[٦].

والملاحظ ان ابن تومرت ينطلق من مبدأ التوحيد من الموقف الفلسفي بمعنى انه يقر المبدأ النظري أولا على قاعدة المقولات ثم يعود إلى النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ليأخذ منها بما يتفق مع ما قرره نظريا ويؤول منها ما يتنافى ظاهره مع نظرياته وهذا ما سيتم ملاحظته.

ومع هذه التربية العلمية، كان يوصي اصحابه بالتربية الروحية الجادة وهي التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في ثواب الاخرة، والاعداد للجهاد في سبيل الله طلبا للشهادة، ومما خاطب به اتباعه في ذلك قوله "ولا تنازعوا ولا تفتنوا بالدنيا فانها فانية وكل

(١) المصدر نفسه، ٢٩.
(٢) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٧.
(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ٢٧/٦؛ مجهول، الحلل الموشية، ١٠٩-١١٠.
(٤) ابن أبي زرع، الانيس المطرب، ١٧٦.
(٥) ابن القطان، نظم الجمان، ٢٣/٦.
(٦) المصدر نفسه، ٢٩/٦.

ما عليها فان.. وتزودوا منها إلى الدار الاخرة.. واستعدوا لها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزا عظيما"[١].

وبذلك يتضح ان ابن تومرت اولى الجانب التربوي في حركته أهمية بالغة، ذلك انه وضع نصب عينه انشاء مجتمع جديد انطلاقا من الجماعة التي احاطت به والتزمت بدعوته، ومجتمع يتفادى تلك العيوب التي تفشت في المجتمع المغربي الكبير. ويمثل التوظيف السياسي بعداً سياسياً في فكر ابن تومرت وفي حركته، فقد كان يعتبر التغيير الاجتماعي والثقافي رهينا للتغيير السياسي، اذا الحاكم في الدولة الاسلامية هو المسؤول عن تطبيق احكام الدين في كافة المجالات، فاذا ما فسدت سياسته، فسدت سائر مظاهر الحياة في المجتمع.

لقد كان التغيير السياسي هدفا من الاهداف الرئيسة في حركته، إلا ان البديل الذي اراد ان يقيمه ما كان واقعا، ولم نجد له في اثاره المكتوبة توظيفا مقررا على وجه التحديد والوضوح كما وجدنا ذلك في التوظيف العقدي والمنهجي، لذلك سنتجه في سبيل توضيح هذا التوظيف السياسي إلى تلك الانتقادات التي كان يواجهها إلى المرابطين في تصرفاتهم السياسية والاجتماعية، كما اننا سنتجه إلى ما قام به عمليا لاجل انشاء مجتمع من الاتباع والمناصرين بناه على قواعد سياسية واجتماعية تساعد في استنتاج توظيفاته في هذا المجال، فقد اتبع عدة قواعد اساسية تساعده في تحقيق ما يصبو اليه.

ولتحقيق توظيفاته ومآربه السياسية اتخذ شعارات خاصة يلتزمون بها واصبحت علامة مميزة لهم فيها (اصبح والحمد لله) التي يذكرها المؤذن بعد صلاة الفجر[٢].

فقد كانت لابن تومرت رايته المسماة المنصورة مكتوب على أحد وجهيها (الواحد الله محمد رسول الله، المهدي خليفة الله)، وفي الوجه الآخر (وما من اله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله)[٣].

---

(١) ابن تومرت، رسالة إلى الموحدين، ٩.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ١٢٧/٦.

(٣) المصدر نفسه، ١٢٧/٦–١٢٨.

وكان لابد لابن تومرت ان يبرر للناس دوافع واسباب ما عزم عليه من الإطاحة بالنظام السياسي للمرابطين، فخصص وقتا كبيرا من جهده لبيان معايب حكام المرابطين واعوانهم، وفساد سياستهم، وهذا ما جاء في الرسالة المعروفة "بالرسالة المنظمة".

فاخذ يطعن في عقيدة المرابطين لاسيما في تشبه رجالهم بالنساء في النقاب وتشبه النساء بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقب(١) ثم أخذ يحرم معونتهم وأتباع أفعالهم ووجوب جهادهم ووصفهم بالكفار(٢) ويدعم أقواله بالآية القرآنية الكريمة **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً))**(٣). عند ذلك بانت نواياه السياسية ورأى ضرورة التغيير السياسي الذي يهدف لازالة السلطة الدائمة واقامة سلطة أخرى مكانها، ولذلك فانه بعد مغادرته لمراكش بادر بان خلع مبايعة علي بن يوسف عن اعناق تابعيه واصحابه واعلن الجميع خلعه(٤).

ثم يوجه رسالة منظمة إلى جماعته أهل التوحيد يوصيهم فيها بتقوى الله والعمل بطاعته وإحياء السنة ويحرضهم فيها على مجاهدة المرابطين الذي يصفهم بالمجسمين والمفسدين والكفرة وينسب إليهم جميع الأفعال السيئة(٥).

واتجه بالخطاب إلى الحكام المرابطين انفسهم واتباعهم ويدعوهم إلى التخلي عن سياتهم ويهددهم بالتدمير وفي ذلك قوله "إلى القوم الذين استذلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة، اما بعد قد امرناكم بما تأمر به انفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته.. وقد وجب لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فان اديتموها كنتم في عافية، والا فسنستعين بالله على قتلكم حتى نمحوا اثاركم، ونكدر

(١) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٩٠-٣٩١، ٤٠٧-٤١٠.
(٢) المصدر نفسه، ٣٩٢، ٤٠٢-٤٠٣.
(٣) سورة التوبة، الآية ١٢٣.
(٤) ابن القطان، نظم الجمان، ٢٩/٦.
(٥) للمزيد ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٤٠٤-٤٠٩.

ديارکم... وقد اعذر من انذر[١]. ثم يدعم قوله بالاية القرآنية الكريمة **((وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ))**[٢]، **((وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ))**[٣].

ويصفهم باصحاب الفتن والرؤوس الجهلة والملوك الفجرة والدجاجلة الطغاة والجبابرة القتاة والملبسين المفسدين والمفترين والمارقين والماردين والجاهلين.. ويبين في بيان علاماتهم وأنهم صم عن الحق لا يستمعون إليه بكمٌ عن الحق لا يقولون به ولا يأمرون به وليسوا اهلا للامانة والقيام بامر الله.. ثم يعيب على نسائهم بقوله رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة وكاسيات عاريات مائلات عن الحق والرشاد.. ثم يخبر بان كل هذه العلامات قد اخبر بها الرسول (ﷺ) بجميعها قبل وجودهم[٤]. ويوجه رسالة إلى اهل جزولة ينصحهم فيها بالتخلي عن المرابطين والرجوع إلى الحق، والخروج من سيطرتهم وعبوديتهم إلى الحرية.. [٥].

وبالمقابل هناك مآخذ عن الموحدين وضد ابن تومرت من قبل المرابطين وهي ان ابن تومرت يكفر الناس بالذنوب ويمنع الصلاة على أهل القبلة. ويرد المطلقة ثلاثاً إلى زوجها، وتكفيره للمسلمين، وغيرها من الأمور الأخرى[٦].

ورد عليهم ابن تومرت بقوله "... فمعاذ الله ان نكفر مسلماً كما قالوه أو نمنع من الصلاة على اهل القبلة، أو نسقط الحقوق أو العبادات بالتوبة... أو تخالف أئمة المسلمين وامرائهم"[٧].

ولما شرع المهدي في تأسيس نواة الدولة الموحدية بعد ما انضمت اليه مجموعة كبيرة من القبائل، واستجاب لدعوته جموع من الناس أدرك المهدي ان انصاره والمستجيبين لدعوته، لا يمكن ان يحافظ على وحدتهم واستمرار ولائهم الا بانشاء

---

(١) مجهول، الحلل الموشية، ٨. ينظر: البيذق، اخبار المهدي، ٨–١٢.

(٢) سورة يونس الآية: ١٠١؛ البيذق، اخبار المهدي، ١١.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧؛ البيذق، اخبار المهدي، ١١.

(٤) ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ٢٨–٢٩؛ مجهول، الحلل الموشية، ٧٩.

(٥) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٤٠١–٤٠٣.

(٦) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٤٠٩؛ ابن القطان، نظم الجمان، ٦/١٠.

(٧) ابن القطان، نظم الجمان، ٦/٢٩.

المجالس الذي يعد عنصرا اساسيا في المضمون السياسي لدولته المرتقبة والذي كان يسعى لاقامتها، وهذه المجالس هي مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين، وجهاز عسكري يشتمل على طبقة الجند، وطبقة الرماة والغزاة وجهازٍ اخر يضم مجموعة القبائل هرغة واهل تينمل، وجدميوه، ومنفيسة، وهشتاله واهل القبائل وكانت غايته تنظيم المهام بالنسبة لكل جهاز لمعالجة المشاكل ومناقشة الامور(١).

فالمجلس الأول سماه "مجلس العشرة" ويشتمل على عشرة رجال من خيرة اصحابه من السابقين إلى نصرته والانضمام اليه.

والمجلس الثاني سماه "مجلس الخمسين" يشتمل على خمسين رجلا يمثلون مختلف القبائل التي انضمت إلى دعوته إلى جانب اعضاء مجلس العشرة.

والمجلس الثالث سماه "مجلس السبعين" ويشتمل على سبعين رجلا من بينهم اعضاء مجلس الخمسين، وعشرون آخرون يمثلون قبائل أخرى"(٢). ويشير ابن القطان بان هؤلاء هم من "انعقد لهم من البر والتكرمة ما انهضهم إلى ان تسمع بقية عوامهم منهم وتطيع"(٣) ولهذا نرى ان المهدي كان يختارهم وذلك لنوايا مستقبلية كونهم هم أصحاب الحل والعقد لدى رعيتهم. فاذا ما احتاج اليهم فيما بعد يستطيع ان يفعل ذلك، وكان هؤلاء يختارون من قبل المهدي بحسب اخلاصهم للدعوة، فلذلك نرى ان من اهل العشرة عبد المؤمن بن علي وأبو حفص عمر الهنتياني ويعد هؤلاء من اشراف اصحابه والسابقون إلى مبايعته(٤).

ومهمة هذه المجالس ابداء الرأي في سياسة الجماعة الجديدة والمداولة في الامور التي تطرح عليه، ويتحدد دور كل مجلس بحسب اهمية القضايا إلى اوجه فاذا

(١) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٨٣-٣٨٦.

(٢) للمزيد، ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ٢٩ وما بعدها؛ ابو القاسم البصري، المقتبس من الانساب، ٤٠. ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٥٧٦/١٠؛ المراكشي، المعجب، ٢٥٥-٢٥٦؛ النويري، نهاية الارب، ٢٨٦/٢٤-٢٨٧.

(٣) نظم الجمان، ٨١.

(٤) ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٧٥٦/١٠؛ المراكشي، المعجب، ٢٥٥-٢٥٦؛ النويري، نهاية الارب، ٢٨٦/٢٤-٢٨٧.

كان الامر كبيرا يخلون بالعشرة فقط دون حضور أي احد معهم، واذا جاء امرا أهون من سابقه احضروا الخمسين، واذا جاء دون ذلك لا يتأخر احد فمن دخل في امره[١].

ان هذا التنظيم يدل على نضج فكر ابن تومرت السياسي وكيف اراد تهيئة النمط السياسي والاجتماعي الذي اراده بديلا للنظام المرابطي، وقلما نجد في الحركات الاصلاحية الاسلامية هذا البعد السياسي المنظم.

ولم تسعفنا المصادر فيما اذا كان المهدي بن تومرت قد اقام هذه المجالس للاستشارة فقط، ام انه كان يلتزم بالقرارات الصادرة عنها، وفي كلتا الحالتين تعد هذه التقسيمات تجربة تمثل عنصرا مهما من عناصر التوظيف السياسي في دعوته.

لطالما أخذ المهدي الحكام المرابطين على اخلالهم بالعدل بين الناس والمساواة بينهم، وممارستهم لمحاباة الاقارب والاتباع وظلم الضعفاء من الرعية وابتزاز اموالهم، فقد كان شديد التركيز على ذلك، دائم التشنيع لهم ومن اقواله في ذلك فيما يتعلق بالمحاباة في المعاملة: "فاذا رأوا مجسما سفيها مضيعا، على الفجور والخمور مصرا، أو قاطعا للطريق سفاكا أو عاصيا فاجرا أو متهاونا بالدين، مستخفا بالحق قربوه ورفعوه واكرموه لفعله مثل افعالهم وسلوكهم لسبيلهم، ونسبوه إلى الهدي والسنة"[٢].

وكان كثير الاشارة إلى ما كان يمارسه الحكام من حيف في اكل اموال الناس بالباطل واخذ اموال اليتامى والارامل وكان يوصيهم بعدم الاسراف والتبذير في الطعام. وكان يتبع القسوة والعنف مع كل من يعارضه أو يشكك في ولائه[٣].

واراد ان يحصل من اتباعه على الولاء المطلق له، فكان ابن تومرت متفطناً لهذه الامور، ولذلك خصص جزءاً كبيراً من جهده لتعبئة انصاره معتمدا على الثقة بالنفس وثقتهم به كقائد، وذلك باقناعهم بان السبيل المسلوك انما هو سبيل الحق الذي لاشك فيه، ولذلك فان ابن تومرت ما فتيء عن هذا الامر منذ ان اصبح له اتباع، واراد ان تقوم هذه الثقة بالنفس على اساس عقدي، فجعل يروي جملة من الأحاديث النبوية الشريفة يعلمها

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ٨١.

(٢) ابن تومرت، الرسالة المنظمة، ضمن كتاب اعز ما يطلب، ٤٠٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٤٠٦.

لاصحابه، فحواها انه تظهر طائفة من الامة تنصر الحق وتقاتل من اجله حتى يتحقق امر الله، وبعض هذه الاحاديث تشير إلى ان هذه الطائفة تظهر في الغرب. وعندما وقع في نفوس أصحابه الايمان بتلك الطائفة والطموح اليها، أعلن لهم انهم هم المعنيون بها فخاطبهم قائلا ما على وجه الارض من يؤمن ايمانكم، وانتم العصبة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لا تزال طائفة بالغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي امر الله..."(١).

على هذا النحو كان المهدي يخاطب الاتباع خطابا مستمرا في توجيهاته ومراسلاته حتى اقنع العقول وشحن النفوس بان هذه الجماعة الجديدة هي امل الامة في القيام بالحق، ومصداق الوحي في التبشير بالطائفة التي لا تزال ظاهرة على الحق حتى تنتصر وتدمر الظلم.

وهكذا نرى ان الحاحه في رسالته على ان الامامة معناها الاتباع والاقتداء والسمع والطاعة والتسليم، وامتثال الامر اجتناب النهي، والاخذ بسنة الامام في القليل والكثير، ولذلك لم يكن جوهر امامته نظريا معرفيا بل كان عملياً سياسيا من حيث ان مدار افكاره كان على الطاعة والامتثال والانقياد، ومن هنا يبرز بجلاء البعد السياسي لدعواه (الامام المعصوم) في منظومة الفكر التومرتي، فهو بحق اراد ان تقام السلطة على العصمة، فقد وظف المهدوية توظيفا سياسيا ذات فعالية تطبيقية متطورة مع الظروف الدينية والبيئية والاجتماعية.

وبعد الوثوق من امر المهدوية، ادرج ابن تومرت هذه العقيدة ضمن نظرية شاملة في الامامة، فاذا الامام هو المهدي المنتظر" العلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، واتباعه والاقتداء بافعاله واجب، والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضى بحكمه واجب، والانقياد لكل ما قضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب"(٢). والامام أيضا لا يكون الا معصوما من الباطل ومعصوما من الضلال، ومعصوما من

---

(١) ابن تومرت، أعز ما يطلب، ٣٩٨.

(٢) ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٣٠٢-٣٠٣.

الفتن ومعصوما من العمل بالجهل، ومعصوما من الجور والبدع، لان الباطل لا يهدم الباطل، والضلال لا يهدم الضلال، والجور لا يهدم الجور[١].

ان هذه النظرية في الامامة المستندة على فكرة المهدوية وما تلاها من عصمة الامام ووجوب طاعته الطاعة المطلقة، استخدمها استخداما سياسيا بقصد المزيد من التفاف اصحابه حوله، لقد استطاع ابن تومرت من خلال التعاليم المتعلقة بالامامة ان يرسخ ثقة اتباعه به، وان يضمن ولاءهم الدائم وطاعتهم المطلقة، وهو ما وصفه المراكشي بقوله "ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد، إلى ان بلغوا في ذلك إلى حدَّ لو امر احدهم بقتل ابيه أو اخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير ابطاء"[٢].

وتصدى ابن تومرت من خلال مبدأ العدل وبشكل مباشر لكل من يناقضه لاسيما المرابطين لانحراف السلطة حسب اعتقاده واباح للناس الخروج عن الطاعة لهم. فيأتي اسلوب القتال، واخذ يستعد لقتال المرابطين وتغيير منكرهم بالسيف واول ما بادر اليه في ذلك المسلك ان رسخ في اتباعه عقيدة الجهاد وحببه إليهم، واوقع في نفوسهم ان جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة "والدين الذي جاهدوا عليه هو الدين الذي لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الارض ومن عليها... فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الاخر لا عذر في تركه، ولا حجة له عند الله، فانهم سعوا إلى هدم الدين وإماتة السنة"[٣].

وقد لجأ ابن تومرت إلى اعتماد اسلوب ذكي في ايراد الأحاديث النبوية الشريفة والاستدلال بها وفق خطة مدروسة تفضي في النصوص المنتقاة إلى النتائج المبتغاة، فنراه يسوق احاديث الفتن بما يوحي عن فساد الزمان واختلاف الامر، حتى اذا دخل اذهان الناس ان ما أنبأت به تلك النصوص مطابق لما يعيشونه في الواقع، وبانه ضرورة التغير

---

(١) المصدر نفسه، ٢٩٧.

(٢) المراكشي، المعجب، ٢٥٩.

(٣) ابو تومرت، اعز ما يطلب، ٤٠٦-٤٠٧.

للخلاص من الاوضاع المتردية التي آل إليها حالهم، وليس لذلك سبيل سوى "المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلا كما ملئت قبله ظلما وجورا بوعد ربه كما وعد"(١) بما لا يدع مجالا للشك في انها تنطبق على شخصيته.

وقد أفرد كتاباً كاملاً في الجهاد وأورد كل ما يتعلق بذلك من أحاديث نبوية شريفة تحث على الجهاد، ثم بدأ يورد الاحاديث المتعلقة بفضل الشهادة في سبيل الله، وكذلك فعل في فضل الجهاد بالمال... ثم يورد لهم التعاليم الخاصة بالقتال وكيفية تجنب ما أمرهم الله وما أحله في هذا الأمر، والصبر على الجهاد(٢).

ولما عد اصحابه الاعداد الصحيح جعل يعدّهم للقتال فجعل يختار الاقوياء الصادقين ثم شرع بمقاتلة المرابطين مبتدئاً بالقبائل والقرى القريبة منه، وكانت له في ذلك وقائع متتالية، حالفه النصر في اغلبها(٣). ولكي يكون المهدي وعسكره في منجاة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ مقراً منيعاً من مدينة تينمل التي وصفت بقوة منعتها(٤).

وبعد اختيار ابن تومرت لاصحابه في صمودهم وقوتهم، من خلال مجموعة من المواقع الصغيرة، رأى انه بالامكان غزو العاصمة مراكش، فجهز جيشا كبيرا أمرَّ عليه ابا محمد عبدالله الونشريسي الملقب بالبشير(*)، والتحم هذا الجيش في موقعة شهيرة هي موقعة البحيرة سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م)، دارت فيها الدائرة على الموحدين، فانهزموا هزيمة منكرة، ولم يفلت منهم الا القليل ولما علم المهدي بالخبر، سأل مخبره عن عبد المؤمن بن

---

(١) ينظر: ابو تومرت، اعز ما يطلب، ٣٠٢.

(٢) للتفاصيل ينظر: ابو تومرت، اعز ما يطلب، ٤١٣-٤٩٤.

(٣) ينظر: البيذق، اخبار المهدي، ٦٥ وما بعدها.

(٤) ينظر: ابن الخطيب، الحلل الموشية، ٨٣.

(*) عبدالله بن محمد بن محسن البشير الونشريسي من أهل المغرب الاوسط، كان ابن تومرت قد التقى به أثناء مروره بمدينة ونشريس فانظم الى دعوة ابن تومرت، واصبح عضوا فاعلا في التنظيم بعد مبايعته لابن تومرت، قتل في معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م. ينظر: البيذق، أخبار المهدي، ٧٣، ٧٨-٧٩؛ مجهول، الحلل الموشية، ١٠٧؛ ابن خلدون، العبر، ٢٢٧/٦.

علي هل لازال على قيد الحياة، فاجيب نعم، فقال كانه لم يمت احد والبركة في بقائه، وكأنهم بالفتح(١).

ولم يزل المهدي بعد هذه الموقعة الا قليلا حتى توفي عام (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م)(٢)، وعندما نتأمل مخططاته وتنظيماته السياسية والادارية، يظهر ان اهدافه كانت سياسية قبل كل شيء، وان الاصلاح العقدي والاجتماعي لم يكن في الواقع الا ذريعة استند عليها وارضية وضعها لدعم موقفه وتقرير طموحاته امام اعدائه المرابطين الا ان المنيه عاجلته ولم تسعفه في تحقيق اصلاحه ومشاهدة نتائج ثورته، الا ان عبد المؤمن بن علي الكومي الذي حكم (٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٨-١١٦٢م) واصل تطبيق مخطط ابن تومرت وسلك نهجه في اقامة دولة الموحدين التي شملت كامل المغرب وقد بلغت من القوة والمنعة ومجاهدة النصارى وتوفير العدل والرخاء للأمة مبلغا عظيما حتى

(١) ينظر: ابن تومرت، اعز ما يطلب، ٧٩؛ البيذق، اخبار المهدي، ٧٣؛ ابن القطان، نظم الجمان، ١٢٢. ويشير ابن خلدون انه عندما كثر اتباع المهدي ورأى منهم من القوة الصمود، جهز جيشا قوامه أربعون ألفا تحت امرة كل من ابا عبدالله الونشريسي وعبد المؤمن بن علي فساروا إلى مراكش وحاصروها حوالي عشرون يوما، الا ان الامير علي بن يوسف استطاع فك الحصار بمساعدة جيش من سجلماسة بعد استنجاده بهم، مما أدى إلى انهزام جيش الموحدين وقتل الونشريسي. ينظر: ابن الاثير، الكامل، ١٠/٢٧٦-٥٧٧؛ المراكشي، المعجب، ٢٦٠؛ النويري، نهاية الارب، ٢٤/٢٨٧-٢٨٨.

(٢) البيذق، اخبار المهدي، ٨٣؛ ابن الاثير، الكامل، ١٠/٥٧٧-٥٧٨؛ المراكشي، المعجب، ٢٦١-٢٦٢؛ العماد الكاتب الاصفهاني، فريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد المنعم، دار النهضة للطباعة والنشر (مصر: ١٩٦٤)، القسم، ٤، ١/١٩٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤/١٤٤؛ زين الدين عمر بن المظفر بن الفوارس ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، (النجف: ١٩٦٩)، ٢/٣٨؛ وهناك من اشار بان وفاته كانت سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م)، ينظر: ابن يعلي حمزة ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الاباء، (بيروت: ١٩٨٠)، ١٩٢؛ ابن خلدون، العبر، ٦/٢٢٩؛ القلقشندي، صبح الاعشا في صناعة الانشا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة (القاهرة: د.ت)، ٥/٩١، والارجح ما ذكره البيذق كونه معاصرا له.

عدها المؤرخون احدى اعظم الدول الإسلامية(١) وبذلك تعد تجربة المهدي من التجارب المهمة في التاريخ الإسلامي.

الخاتمة

ان ما أوردناه في مضمون التوظيفات السياسية التي قام بها ابن تومرت لم يشمل كل ما وضعه من عناصر في توظيف هذه الثورة، ولكنه يمثل الخطوط السياسية والاساسية للمشروع الذي اراد تطبيقه على ارض الواقع وتحديد المسار للحياة السياسية والاجتماعية التي ينبغي ان تسير عليه. واتضح هدفه الذي من اجله قام بحركة التغيير هذه من خلال عمل واع ومنظم.

ان هذا المضمون يتصف بالشمول والتكامل، اذ غطى الجوانب المهمة في فكرة التوظيف السياسي، وتكامل فيه الاساس العقدي الذي يمثل الملهم الاساسي الذي يوجه سائر التوجهات ويرسم الاطار العام للحركة مع الاساس المنهجي الذي يضع الاطار الذي فيه وبه تم تنفيذ ما اراد الوصول اليه. ويمكن القول ان ابن تومرت جعل من دراسة واقع المغرب الكيفية التي يمكن ان يستغلها لفكره السياسي، على ما التزمه من امر بالمعروف ونهي عن المنكر في حركة دائبة لا تعرف الوقوف ولا الوهن.

وشمل حواره كل مجالات الواقع ومظاهره، فقد كان يلتقي بالعامة من الامة في المناطق والمدن التي يمر بها، وينهي عن مظاهر الفساد من فسق وجور في الشوارع والاسواق ويلقي دروس العلم في المساجد لتنوير العقول ورفع الجهل بالشريعة عقيدة وسلوكا، كما كان يلتقي بالفقهاء والعلماء يناظرهم في مسائل العلم، ويباحثهم في امور الدعوة في جموع الناس، ومع الامراء والحكام والولاة وحاشيتهم فيحضهم ويصارحهم بفساد سياستهم في الرعية وعدم تطبيق الشريعة، وانتهى في ذلك إلى تقديم عام بنى على اساسه المنهج الذي استخدمه فيما بعد.

---

(١) للمزيد عن قيام دولة الموحدين، ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ١٠/٥٧٧-٥٨٨؛ المراكشي، المعجب، ٢٦١-٢٦٣؛ النويري، نهاية الأرب، ٢٤-٢٨٩-٢٩٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٩٨/٤.

ولما رأى المهدي ان الكثير من العامة تأتي المنكر جهلا بالدين قرر لابد من القيام بدور تربوي يهدف إلى تبصير الناس بحقائق الدين ورفع الجهل عنهم سواء في مستوى التعريف بالأحكام الصحيحة أو في مستوى التعريف بالمنهج الصحيح المؤدي إلى تلك الاحكام. وتمثلت الخطوة الاولى فيما التزمه في رحلته بعد عودته من المشرق من تبصير الناس وان يكون القران الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدر المباشر لأحكام الدين.

وأول ما تبادر من الايجابيات في هذه التجربة، ان صاحبها دمج فيها بين الفكر والعمل، لقد كان عالما بالدين عقيدة وشريعة متمثلاً، ولم يقف عنده كما كان الحال بالنسبة للكثير من علماء الدين المسلمين، بل سعى إلى ان يكون ذلك العلم واقعا في الحياة وعقيدة وسياسة واجتماعا واقتصادا ورأى ان ذلك السعي انما هو جزء من الدين، اذ غاية الدين تنظيم الحياة الواقعية للفرد والمجتمع.

فان ابن تومرت سعى إلى التغيير على مستوى الواقع المعاشي في البيئة المغربية يدفعه في ذلك مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يعد الرابط الحقيقي بين العلم والعمل، والذي أوجبه الإسلام على المسلمين ضمانا لعدم الانفصال بينهما، فادى ذلك إلى هذا الاتصال المتين في دعوته بين القناعة الفكرية المتمثلة في العلم، وبين السعي الدؤوب من اجل ان يكون لذلك العلم مصداق في حياة الناس، وتلك احدى المحاسن في تجربة التغيير التي قام بها.

واستخدامه لنظرية المهدوية وما تبعها استخداما سياسيا، فانتحال صفة المهدي المنتظر في نطاق المنهجية السياسية قد يدرج في باب الذكاء والحنكة السياسية، ولكنه بمعيار السياسة الشرعية يبقى عملا منافيا للحق، ويعتبر احد اخطاء التجربة.

وقد كانت حركة ابن تومرت تقوم على اسس رئيسة هي التوحيد في العقيدة والتأصيل في الشريعة، والعدل في الحكم، وظل يشرع هذه الاسس، ويبرهن عليها ويؤصلها في نصوص القران والحديث، بميزان الحجة العقلية، ثم اعلن بعد ذلك حركته التغيرية قائمة على تلك القاعدة العقدية مستندة إليها، فاذا لحركة التوحيد العقدية ابعاد في

السلوك الفردي والسياسي والاجتماعي واذا لحقيقة التأصيل ابعاد في المنهج الثقافي عامة والفكري على اختلاف ألوانه.

The idea of Mahdism and political functions at the son of Tomert

Dr.Aai'da Mohammed Ubaid

Abstract

The political change was one of the main objectives of the movement of Ibn Tomart, but at first we did not notice and touch the effects and call for employment specifically planned and clear, as we have seen in the recruitment of nodal and methodical, so we will move to clarify this recruitment to the principle of enjoining good and forbidding And then we turn to those criticisms that he directed to Almoravid later on their political and social behavior, and we will go to what he did in practice for the establishment of a community of followers and supporters built on the basic political and social rules to help him achieve what he aspires to.